## (25) أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه

ومن منا لا يعرفه أو لم يسمع باسمه من قبل، إنه زعيم الكفر قبل إسلامه، فقد آلت[1] إليه زعامة مكة المكرمة فى حروبها ضد الإسلام والمسلمين بعد غزوة بدر الكبرى، فهو الصحابى الجليل بعد إيمانه، هكذا انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى يوم الفتح الأعظم يوم فتح مكة بإرادة الله تعالى الذى يملك القلوب. وهو والد أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان زوج النبى ﷺ، ووالد أمير المؤمنين معاوية رضي الله عنه، وأحد أشراف العرب وسادة قريش.

كان رجلاً يحب الفخر؛ ولذلك جعل الرسول ﷺ له شيئًا من ذلك عندما دخل مكة فاتحًا، وقال لأهلها وهو يؤمنهم على أنفسهم «**من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**» . . معًا نقلب الصفحات؛ لنتعرف عليه أكثر وأكثر.

***

هو أبو سفيان صخر بن حرب بين أمية، وله كنية أخرى هى أبو حنظلة باسم ابنه الأكبر حنظلة. ولد قبل عام الفيل بعشر سنوات؛ ولذلك فهو أسن من رسول الله ﷺ. وكان صديقًا للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبى ﷺ، وكان من أشراف قريش وأفضلهم رأيًا، وهو أحد الذى يتاجرون بأموالها، ولكن ما أن ظهرت دعوة الإسلام فى مكة المكرمة حتى بدأت قريش حربها عليها، رغم أنها تعلم أن محمدًا ﷺ صادق فيما دعو إليه، أمين فيما يبلغ عن ربه تعالى. ومن هؤلاء كان أبو سفيان بن حرب، ورغم ذلك إلا أنه كان يعرف لمحمد بن عبد الله ﷺ قدره وشرفه، ويجله أعظم إجلال، فقد ركب ذات يوم دابته وخلفه زوجته هند بنت عتبة، ومعهما معاوية ابنهما يركب حمارًا، وكان لا يزال صغيرًا، فمروا برسول الله ﷺ وهو يسير، فقال أبو سفيان رضي الله عنه لابنه: انزل يا معاوية حتى يركب محمد، فنزل معاوية وركب رسول الله ﷺ، فساروا قليلاً، ثم التفت إليهم رسول

(1) آلت: صارت ورجعت.

الله ﷺ وقال: **يا أبا سفيان بن حرب، ويا هند بنت عتبة، والله لتموتن، ثم لتبعثن، ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيئ النار وأنا أقول لكم بحق.** ثم قرأ عليهم القرآن الكريم. فقال أبو سفيان: أفرغت يا محمد؟

قال: **نعم.** ثم نزل رسول الله ﷺ، وركب معاوية وسار كل فى طريقه، فقالت هند لزوجها: ألهذا الساحر أنزلت ابنى؟! فأجابها: **لا والله ما هو بساحر ولا كذاب**، بل إنه عندما سأله هرقل ملك الروم عن رسول الله ﷺ، لم يشأ أن يكذب، بل إنه قال: والله لولا الحياء من أن يأثروا علىّ كذبًا لكذبت عنه ولم يقل إلا الصدق من أن محمدًا من أوسطهم حسبًا ونسبًا.

هكذا كانت أخلاقه الصدق والمروءة، ورجاحة العقل.

***

عند اشتداد العذاب على المسلمين أمرهم الرسول ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجروا إليها، وتركوا أموالهم وديارهم بمكة المكرمة، فاستولى عليها المشركون، وكان استرداد هذه الأموال سبب غزوة بدر الكبرى. كان أبو سفيان رضي الله عنه يذهب بتجارة قريش إلى الشام، ويعود بالأموال والبضائع الشامية، وعلم رسول الله ﷺ أن قافلة عظيمة قادمة من الشام فيها أموال لقريش بقيادة أبى سفيان بن حرب، فحث المسلمين إليها، وقال: « **هذه عير[1] قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها[2]**»

فخرج بعض المسلمين، وكان عددهم حوالى ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وما كانوا يظنون أن قتالاً سيحدث، علم أبو سفيان أن المسلمين قد خرجوا إليه يريدون القافلة، فغير الطريق، وفى نفس الوقت أرسل إلى قريش يخبرهم أن محمدًا وأصحابه يريدون القافلة، فعليهم بالخروج لحماية أموالهم. وصل الفريقان، فريق الحق والإيمان، وفريق الكفر والطغيان، إلى أرض المعركة، وكانت عند بئربدر، وانتصر المسلمون، وأسروا سبعين من جيش مكة، وكان من بين الأسرى عمرو بن

(1) عير: القافلة التي تحمل الطعام والأموال.
(2) ينفلكموها: يغنمكموها.

أبى سفيان ، آلت زعامة قريش بعد هذه المعركة إلى أبى سفيان بن حرب رضي الله عنه الذى نذرألا يمس رأسه ماء حتى يغزو محمداً، فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبرّ يمينه ويوفى نذره، فوجدوا على أطراف المدينة المنورة رجلاً من الأنصار مع حليف له فقتلوهما ثم رجعوا هاربين، وعلم رسول الله ﷺ بذلك فخرج ومعه بعض المسلمين لمطاردتهم، ولكنهم بالغوا فى السرعة والهرب.

بعد عام من غزوة بدر الكبرى عاودت قريش هجومها فيما يعرف بغزوة أحد.

رصدت قريش أموال القافلة التى كانت سبب غزوة بدر وقتل أشرافهم لتجهيز جيش يأخذ الثأر من المسلمين. وتكوّن الجيش، وكان قوامه ثلاثة آلاف مقاتل. وتحرك نحو المدينة المنورة، وعلم رسول الله ﷺ بذلك فخرج لملاقاته بسبعمائة مقاتل عند جبل أحد، وعيّن سبعين من أمهر الرماة وجعلهم فوق الجبل بقيادة عبد الله بن جبير الأنصارى رضي الله عنه ، وأوصاهم أن يحموا ظهور المسلمين، وألا يتركوا الجبل مهما حدث.

وبدأت المعركة، واندلعت نيرانها، وازداد اشتعالها، وأخذ المسلمون يحصدون رؤوس المشركين حتى هزموهم، وسقط لواءهم على الأرض، فهنا نزل الرماة من فوق الجبل رغم تحذير قائدهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، فقد ظنوا أن المعركة قد انتهت وحسمت، إلا أن خالد بن الوليد - وكان لا يزال على شركه- استدار بالجيش وقتل من بقى من الرماة، فانكشف ظهر الجيش الإسلامى وتحول نصره إلى هزيمة بسبب مخالفة أوامر الرسول ﷺ ، بل إنه قد أشيع فى المعركة أن رسول الله ﷺ قد قتل.

قبل أن ينصرف المشركون صعد أبو سفيان على الجبل، ونادى المسلمين: أفيكم محمد؟ فلم يسمع جوابًا. فقال: أفيكم ابن أبى قحافة؟ فلم يجبه أحد. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. فقال: أمّا هؤلاء فقد كفيتموهم، لأنه يعلم أن قيام الإسلام بهم. فهنا قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا عدو الله، إن الذى ذكرتهم أحياء.

ثم قال أبو سفيان صائحًا: أعْلِ هُبل [1]. فقال رسول الله ﷺ : ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما نقول: قال: قولوا الله أعلَى وأجل. فقالها عمر. ثم قال أبو سفيان: لنا العُزَّى [2] ولا عزى لكم. فقال النبى ﷺ : ألا تجيبونه؟ فقالوا: فما تقول؟ قال:

(1) هُبَل: اسم صنم.

(2) العزّى: اسم صنم.

قولوا الله مولانا ولا مولى لكم. فقالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم قال أبو سفيان: الحرب سجَال[1] يوم بيوم بدر فأجابه عمر: لا سواء. قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار. ثم قال أبو سفيان: إنه قد كان فى قتلاكم مُثل[2]، والله ما رضيت بها، وما نهيت، وما أمرت. ثم نادى: إن موعدكم بدر العام المقبل. ثم أمر بالرحيل نحو مكة.

وبعد عامين وفى شوال من السنة الخامسة للهجرة، قاد أبو سفيان قريش ومن معها لغزوة المدينة المنورة فيما يعرف بغزوة الأحزاب أو غزوة الخندق.

***

وصلت جموع المشركين، وكان عددها عشرة آلاف مقاتل إلى المدينة المنورة، ففوجئت بمكيدة لم تكن العرب تعرفها قبل ذلك، وهى حفر خندق حول المدينة، والذى أشار بذلك هو الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضي الله عنه لم يجد المشركون أمام هذه الحيلة سوى ضرب حصار حول المدينة دام حوالى شهر، ولكن الله تعالى فرّق جموع الأحزاب، وشتت شملهم، وأرسل عليهم فى ليلة مظلمة ريحًا شديدةً باردة نزعت خيامهم من أوتادها، وأطفأت نارهم، وألقت الرعب فى قلوبهم. فناداهم قائدهم بالرحيل: يا معشر قريش، لقد لقينا من شدة الريح ما ترون، وإنى راحل فارتحلوا، ولينظر كل امرئ من جليسه.

وهكذا أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنعم عليهم، وعصمهم ممن أراد بهم السوء بعد أن زلزلوا زِلزالاً شديدًا، ورد الله الذين كفروا من الأحزاب بغيظهم دون أن ينالوا من المسلمين شيئًا، وكفى الله المؤمنين القتال. . وفى ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة كان صلح الحديبية بين المسلمين وقريش الذى نقضته عندما أعانت قبيلة بنى بكر الداخلة معها فى حلفها على قبيلة خزاعة الداخلة فى حلف المسلمين، وطبقًا لنصوص المعاهدة فإن هذا يعتبر نقضًا لها، وخافت قريش من تبعات هذا النقض، فأرسلت أبا سفيان بن حرب زعيمها إلى المدينة المنورة ليجدد العهد، ويزيد فى المدة.

(1) سِجَال: متداولة يوم نصر ويوم هزيمة. (2) المُثلة: تشويه القتيل بقطع بعض أعضائه.

وصل أبو سفيان رضي الله عنه إلى المدينة المنورة، دخل على ابنته أم حبيبة زوجة النبى ﷺ ، فلما هم بالجلوس على فراش رسول الله ﷺ طوقته عنه، فعجب أبو سفيان من صنيع ابنته، وقال لها: يَا بنية، أرغبت بى عن الفراش، أم رغبت به عنى؟!! فقالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مُشرك نجس. فقال لها: والله لقد أصابك بعدىَ شر.

ثم خرج فأتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ ، فقال له: ما أنا بفاعل. . ثم أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكلمه، فقال له: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر[1] لجاهدتكم به. ثم خرج فدخل على على بن أبى طالب رضي الله عنه ، فقال له: يا على إنك أقرب القوم إلىّ، وإنى قد جئتك فى حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، فاشفع لى إلى محمد. فقال له: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمرما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة -رضى الله عنها -، وقد بلغ به اليأس مداه، وقال لها: يا ابنة محمد، أهل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ . فقالت: والله ما يبلغ ابنى ما تقول، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، وعاد أبو سفيان إلى مكة خائبًا كما جاء. وبعد هذه الواقعة بأيام كان فتح مكة المكرمة فى رمضان من السنة الثامنة للهجرة.

***

أخذ الله تعالى العيون عن قريش فلم تعلم بقدوم جيش المسلمين، وكان عدده عشرة الاف حتى وصل إلى مشارف مكة عند مكان يسمى «مَرّ الظهران». . نزل الجيش وعسكر، وأمر رسول الله ﷺ بإيقاد شُعَل النار، فأوقدت عشرة آلاف شعلة.

أثناء ذلك كان أبو سفيان قد خرج ليلاً يتجسس الأخبار ومعه حكيم بن حزام وبديلَ بن ورقاء، فرأوا هذه النيران، فتعجبوا منها، وقال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط، ولا عسكرًا. فرد عليه بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[2]

(1) الذر: الحصى الصغيرة.
(2) حمشتها: احرقتها.

الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، فسمع العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عم النبي ﷺ صوت أبي سفيان، فعرفه وناداه: أبا حنظلة. أبا حنظلة. وعرف أبو سفيان رضي الله عنه صوت العباس رضي الله عنه أيضًا، فأجابه: أبا الفضل. فقال العباس: نعم. فسأله أبو سفيان: لمن هذه النيران؟ قال: هذا رسول الله ﷺ في الناس. ثم نصحه قائلاً: والله لئن ظفر بك رسول الله ﷺ ليضربن عنقك، فاركب خلفي على بغلة رسول الله حتى آتي بك إليه فأستأمنه لك.

وسارت البغلة، وكلما مرّت على نار من نيران المسلمين سألوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة الرسول ﷺ وعليها عمه تركوها، حتى مرّا على خيمة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فرأى أبا سفيان خلف العبّاس على البغلة، فقال: أبو سفيان عدو الله؟!! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد في سيره نحو رسول الله ﷺ. أما العباس فقد أسرع بالبغلة حتى سبقه إلى رسول الله ﷺ، ودخل عليه، ودخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أيضًا، وقال له: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، فقال العباس رضي الله عنه: يا رسول الله، إني قد أجرته[1] ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس رضي الله عنه أن يذهب به ويبيته عنده، ويأتي به في الصباح. فلمّا أصبح العباس جاء به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال له: **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟** فقال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى غنى شيئًا بعد، والمعنى أن أبا سفيان رضي الله عنه يعلم يقينًا كغيره من مشركي مكة أنه لا إله مع الله، فهو الواحد المتفرد بالعبودية، وأن ما يعبدونه من أصنام لا تغني عنهم شيئًا، ولا تملك لهم النفع ساعة الخطر، وعبادتهم لها لتقربهم إلى الله منزلة.

ثم سأله رسول الله ﷺ: **ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟!** قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، ويدخل العباس رضي الله عنه في الحوار، ويقول لأبي سفيان:

---

(1) أجرته: حميته وأمّنته.

ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وهنا يشعر أبو سفيان أنه لا فائدة من العناد والمكابرة، وأن نور الحق قد سطع، فعليه أن ينقاد له، ويسلم لله رب العالمين، فشهد شهادة الحق وأسلم.

فقال العباس رضي الله عنه : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا. فقال ﷺ : **نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن** وأسلم أبو سفيان رضي الله عنه ، وأصبح للإسلام وجنديًا من جنوده بعد أن كان عليه، وقائدًا من قواد الكفر والطغيان، وأبلى البلاء الحسن فى سبيل رفعة ونصرة هذا الدين.

***

بعد إسلام أبى سفيان رضي الله عنه ، وقبل دخول جيش الإسلام مكة المكرمة، كانت تمر الجنود، كل قبيلة يحمل لواءها أحد أفرادها فيراها أبو سفيان رضي الله عنه قبيلة قبيلة، فيقول: ما لى ولبنى فلان، مالى ولبنى فلان، حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبة الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى فيها إلا حدَاق[1] أعينهم، فقال للعباس: سبحان الله يا عباس! من هولاء فأجابه: هَذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار. فقال أبو سفيان رضي الله عنه : ما لأحد بهؤلاء قبَل[2] ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا. فرد العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة. فقال: فنعم إذن. دخل الرسول ﷺ مكة المكرمة، وعفا عن أهلها جميعًا، وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. وطهّر الكعبة من الأصنام التى حولها وفوقها والصور التى بداخلها. . وعندما حانت الصلاة أمر بلالاً رضي الله عنه أن يصعد فوق الكعبة فيؤذن للصلاة، وكان أبو سفيان رضي الله عنه ومعه آخران لم يسلما بعد جلوس بفناء[3] الكعبة.

فقال أحد الرجلين: لقد أكرم الله أبى أن لا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما

---

(1) حدَاق: جمع حدقة، وهى السواد المستدير وسط العين.

(2) قبَل: طاقة ومقدرة.

(3) فَناء: الساحة ويجمع على أفنية.

يغيظه. وقال الآخر: أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته، أما أبو سفيان رضي الله عنه فقال: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء[1].

وشهد أبو سفيان رضي الله عنه بعد ذلك غزوة حُنَيْن[2]، وأعطاه الرسول ﷺ من الغنائم مائة من الإبل ليتألف[3] قلبه، كما أعطى لغيره من الزعماء الذين أسلموا يوم فتح مكة حتى يثبتوا على إسلامهم، فإن من الناس من لا ينقاد إلى الحق إلا بالمال، حتى يثبت عليه، وعندما أعطاه الرسول ﷺ ما أعطاه، قال له: والله إنك لكريم، فداك أبى وأمى، والله لقد حاربتك فلنعم المحارب كنت، ولقد سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيراً.

وشهد بعد ذلك أبو سفيان رضي الله عنه غزوة الطائف، وأصيبت عينه بسهم ففقأها، فأتى النبى ﷺ وقال له: يا رسول الله، هذه عينى أصيبت فى سبيل الله، فقال له النبى ﷺ: **إن شئت دعوت الله، فَرُدَّت عليك، وإن شئت فالجنة.** فقال: بل أصبر والجنة. وعندما جاء وفد ثقيف إلى رسول الله ﷺ مسلمًا، بعث معهم أبا سفيان بن حرب ﷺ، والمغيرة بن شعبة رضي الله عنه ليهدما صنمهم اللات..

***

كان أبو سفيان رضي الله عنه يندم على المشاهد التى شهدها ضد المسلمين، وعلى كل يوم وقف فيه يصد عن سبيل الله، ويرجو أن يقف موقفًا يدافع عنه، عساه أن يعوض ما فاته. وبالفعل عندما كانت خلافة الفاروق عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه حدثت معركة اليرموك[4] الخالدة، وفيها قاتل أبو سفيان رضي الله عنه قتال الأبطال، وكان هو الخطيب فى الجيش، والمثبت له، والمحرض له على القتال والاستبسال والذود عن الإسلام. فقد كان يصيح فى كل كتيبة، وهو يقول: الله الله، إنك ذادة[5] العرب، وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار المشركين.

---

(1) الحصباء: الحجارة الصغيرة.

(2) حُنَيْن: غزوة بين المسلمين وقبيلتا هوازن وثقيف فى السنة الثامنة للهجرة.

(3) يتألف: يستميل.

(4) اليرموك: معركة بين المسلمين والروم فى السنة الخامسة عشرة للهجرة.

(5) ذادة: حُماة.

اللهم هذا يوم من أيّامك. اللهم أنزل نصرك على عبادك، ويشتد القتال، ويبلى المسلمون البلاء الحسن حتى يتحقق لهم النصر بإذن الله تعالى..

وهكذا انتقل هذا الصحابى الجليل من ظلمات الكفر والشرك إلى نور الإيمان والتوحيد، وتحول بفضل الله تعالى إلى مجاهد فى سبيله بعد أن كان يقاتل فى سبيل الهوى والشيطان. حتى لبى نداء ربه فى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين للهجرة.

رحمه الله تعالى، وتغمده بواسع رحمته.

• **من فضائل أبى سفيان بن حرب رضي الله عنه:**

١- قال رسول الله ﷺ: **«من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»**.

***